

حكمة الاختبار.. شجرة لها ثمار



عن أمير المؤمنين علي (ع) :

"... ولكن إِنَّمَا يُخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِأَنَواعِ الشَّدَائِدِ، وَيَتَعَدَّ دُهُمُهُ بِأَنَواعِ الْمُجَاهِدَهُ، إِخْرَاجًاً لِلتَّكْبِيرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَإِسْكَانًا لِلتَّذَلِّلِ فِي نُفُوسِهِمْ، وَلِيَجْعَلَ ذَلِكَ أَبُوا بَابَاهُ فُتُحًا إِلَى فَضْلِهِ، وَأَسْبَابًا ذُلْلًا إِلَى عَفْوهٖ". (نهج البلاغة، الخطبة 192)

الامتحان الإلهي سند خالدة:

يشير الإمام علي (ع) إلى حقيقة وسند إلهية جارية على الناس في حياتهم الدنيوية، وهي سنة الاختبار والامتحان، وهي حقيقة كثيراً ما أشار لها القرآن الكريم.

يقول تعالى: (أَحَسِبَ النَّاسُ أَنَّمَا يَعْرِفُونَ كُوَا أَنَّمَا يَعْرِفُونَ لَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِهَرُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) (العنكبوت/ 2-3).

ويقول سبحانه: (وَلَذِكْرُهُمْ وَرَبِّهِمْ وَرَحْمَةُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ). ويقول سبحانه: (وَلَذِكْرُهُمْ وَرَبِّهِمْ وَرَحْمَةُهُمْ وَأُولَئِكَ عَلَيْهِمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ مُوْلَأُونَ وَإِنَّا إِلَيْهِ مُرْجَعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ).

"يفتنون" مشتق من "الفتنة" وهي في الأصل وضع الذهب في النّار لمعرفة مقدار خلوصه، ثم أطلق هذا التعبير على كل امتحان ظاهري ومعنوي .

في مجال الاختبار الإلهي تطرح بحوث كثيرة. وأوّل ما يتبارى للذهن في هذا المجال هو سبب هذا الاختبار. فنحن نختبر الأفراد لنفهم ما نجهله عنهم. فهل أن الله سبحانه وتعالى بحاجة إلى مثل هذا الاختبار لعباده، وهو العالم بكل الخفايا والأسرار؟! وهل هناك شيء خفي عنه حتى يظهر له بهذا الامتحان؟!

والجواب: إن مفهوم الاختبار الإلهي يختلف عن الاختبار البشري.

اخباراتنا البشرية تستهدف رفع الإبهام والجهل، والاختبار الإلهي قصده "التربية" وإصال الإنسان إلى الكمال بإخراج الدفائن المكنونة فيه.

كثيراً ما تحدّث القرآن عن الاختبار الإلهي، باعتباره سدّة كونية مستمرة من أجل تفجير الطاقات الكامنة، ونقلها من القوة إلى الفعل، وبالتالي فالاختبار الإلهي من أجل تربية العباد، فكما أنّ الفوّلاد يتخلّص من شوائبها عند صهره في النار، كذلك الإنسان يخلص وينقى في خضم الحوادث، ويصبح أكثر قدرة على مواجهة الصعاب والتحديات.

الاختبار الإلهي يشهي عمل زراعي خبير، ينشر البذور الصالحة في الأرض الصالحة، كي تستفيد هذه البذور من مواهب الطبيعة وتبدأ بالنمو، ثم تصارع هذه البذرة كل المشاكل والصعاب بالتدرج، وتقاوم الحوادث المختلفة كالرّياح العاتية والبرد الشديد والحرّ اللافي، لتخرج بعد ذلك نبتة مزهرة أو شجرة مثمرة، تستطيع أن تواصل حياتها أمام الصعاب.

ومن أجل تعزيز معنويات القوّات المسلّحة، يؤخذ الجنود إلى مناورات وحرب اصطناعية، يعاونون فيها من مشاكل العطش والجوع والحرّ والبرد والظروف الصعبة والحواجز المنيعة. وهذا هو سر الاختبارات الإلهية.

ويقول سبحانه في موضع آخر من كتابه العزيز: (وَلِيَأْتِيَ الْمُؤْمِنُونَ مَا فِي صُدُورِهِ وَلِيَمْحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَاتِ الْمُسْكُنِ) (آل عمران/ 154).

ويقول أمير المؤمنين عليّ (ع) في بيان سبب الاختبارات الإلهية: "... (وإن) كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم، ولكن لظهور الأفعال التي بها يستحق الثواب والعذاب" [1].

أي أنّ الصفات الكامنة لا يمكن أن تكون وحدها معياراً للثواب والعقاب، فلابدّ أن تظهر من خلال أعمال الإنسان، وإن يختبر عباده ليتحقق ما يضمرونه في أعمالهم، ولكي تنتقل قابليةّاتهم من القوة إلى الفعل، وبذلك يستحقون الثواب أو العقاب.

لو لم يكن الاختبار الإلهي لما تفجّرت هذه القابليةات، ولما أثمرت الكفاءات، وهذه هي فلسفة الاختبار الإلهي في منطق الإسلام.

الاختبار الإلهي عامٌ :

نظام الحياة في الكون نظام تكامل وتربيّة، وكلّ الموجودات الحيّة تطوي مسيرة تكاملها، حتى الأشجار تعبّر عن قابليةّاتها الكامنة بالأثمار. من هنا فإن كلّ البشر، حتى الأنبياء، مشمولون بقانون الاختبار الإلهي كي تنجلي قدراتهم.

الامتحانات تشمل الجميع وإن اختلفت شدّتها وبالتالي تختلف نتائجها أيضاً، يقول سبحانه: (أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنُوا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ) (العنكبوت/ 2).

القرآن يعرض نماذج لاختبارات الأنبياء إذ يقول: (وَإِذْ أَبْتَلَنِي إِبْرَاهِيمَ رَبِّهُ) البقرة / 124.

ويقول في موضع آخر بشأن اختبار النبي "سليمان" (ع): (فَلَمَّا كَانَ رَأْهُ مُسْتَقْرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَحْلٍ رَبِّي لَيْبَلُ وَزَرِي أَكْثَرُ أَمْ أَكْثَرُ...) (النمل / 40).

يقول الإمام علي (ع): "أما بعد، فإنّا لم يقصّم جباري دهره قطّ إلا بعده تهمهيل ورخاء ولم يجرّ عظامه أحد من الأمم إلا بعده أزل وبلاه وفي دون ما استقبلته من عذاب وما استدبره تهم من خطبٍ معذبه وما كعل ذي قلبٍ بلديبيه ولا كعل ذي سمّع بسميعه ولا كعل ناظره ب بصير" [2].

ويقول (ع): "إنّا يَبْتَلِي عباده عند الأعمال السيئة بنقص الثمرات، وحدّثكم البركات، وإغلاق خزائن الخيرات، ليتوب تائبٌ ويُقلّع مُقلّعٌ، ويتدذكر متذكرٌ، ويزدجر مُزدجر" [3].

طرق الاختبار:

إنّ اختبار الله تعالى للناس متنوّع وممتدّ ولا يقتصر على الجانب السلبي.

يقول سبحانه: (وَلَذَّابٌ وَنَكُومٌ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْمٌ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشَّرَ الصَّابِرَاتِ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةً قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ مَا رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ) (البقرة / 155-157).

هذه الآية الكريمة تشير إلى البلاء والاختبار في الجانب السلبي، لكن الآية التالية تعمّم الاختبار، يقول تعالى: (كُلُّ زَفْرَضٍ ذَائِقَةُ الرَّمَوْتِ وَزَبَلُوكُومٌ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فَتَذَذَّةٌ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) (الأنبياء / 35).

يروى أنّ أمير المؤمنين (ع) مرض فعاده قوم فقالوا له: كيف أصبحت يا أمير المؤمنين؟ فقال: أصبحت بشر، فقالوا له: سبحان الله هذا كلام مثلك؟! فقال: يقول الله تعالى: "ونبلوكم بالخير والشر فتننة. فالخير الصحة والغنى، والشر المرض والفقير، ابتلاءً واختباراً" [4].

وعنه (ع) في قوله تعالى: (أَرَمَّا أَمْوَالَكُومْ وَأَوْلَادَكُومْ فَتَذَذَّةٌ) (الأనفال / 28): "ويعني ذلك أنّه سبحانه يختبر عباده بالأموال والأولاد ليتبين الساخط لرزقه والراضي بقسمه، وإن كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم، ولكن لظهور الأفعال التي بها يستحق الثواب والعقاب" [5].

إذاً، فالمحنات الإلهية تأتي بصورة مختلفة:

فالجماعة الذين يعيشون في محيط ملوث بالمفاسد والوساوس تحيط بهم من كل جانب، فإنّ امتحانهم الكبير في مثل هذا الجو والظروف، هو أن لا يتأثرروا بلون المحيط وأن يحفظوا أصالتهم ونقائهم.

والجماعة الذين يعيشون تحت ضغط الحرمان والفقير، يرون أنّهم لو صمّموا على ترك رأس مالهم الأصيل "الإيمان" فإنّهم سرعان ما يتخلّصوا من الفقر والحرمان لكنّ ثمن ذلك هو فقدانهم للإيمان والتقوى والكرامة والحرمة والشرف، فهنا يمكن امتحانهم..

وجماعة آخرون على عكس أولئك غرقى في اللذائذ والنعيم، والامكانات المادية متوفّرة لديهم من جميع الوجوه، ترى هل يؤدّون في مثل هذه الظروف الشكر على النعم، أو سيبقون غرقى في اللذائذ والغفلة وحب الذات والأناانية، غرقى الشهوات والاغتراب عن المجتمع وعن أنفسهم؟!

وَجَمِيعُهُمْ كَالْمُتَغَرِّبِينَ بَيْنَ فِي عَصْرِنَا، يَرَوْنَ بَعْضَ الدُّولَ بَعِيدَةً عَنِ الْفَضْلَةِ وَالْأَخْلَاقِ حَقّاً، وَلَكِنَّهَا تَتَمَتَّعُ بِالْتَّمَدِّنِ الْمَادِيِّ الْمَذَهَلِ وَالرَّفَاهِ الْإِجْتِمَاعِيِّ. هُنَّا تَجْذِبُهُمْ هُؤُلَاءِ الْمُتَغَرِّبِينَ بَيْنَ قُوَّةِ خَفِيفَةِ إِلَى سُلُوكِ هَذَا النَّوْعِ مِنَ الْحَيَاةِ أَوْ سُقُوقِ جَمِيعِ الْقَيمَاتِ وَالْأَصْوَلِ وَالْأَعْرَافِ الَّتِي يَعْتَقِدُونَ بِهَا، وَيَبْيَعُونَ أَنفُسَهُمْ أَذْلَاءَ عَمَلَاءَ لِتَلْكَ الدُّولَ، لِيَوْفِرُوا لَهُمْ وَلِجَمِيعِهِمْ مِثْلَ هَذِهِ الْحَيَاةِ... وَهَذَا نَوْعٌ أَخْرَى مِنَ الْامْتَحَانِ.

الْمَصَابِ، وَالآَلَامِ وَالْهَمُومِ، وَالْحَرُوبِ وَالنَّزَاعَاتِ، وَالْقَحْطِ وَالْغَلَاءِ، وَمَا تُشِيرُهُ الْحُكُومَاتُ الْأَنَانِيَّةُ لِتَجْذِبِهِمْ إِلَيْهَا وَتَسْتَعْدِهِمْ بِهِ وَأَخِيرًاً الْأَمْوَاجُ الْنَّفْسِيَّةُ الْقَوِيَّةُ وَالشَّهْوَاتُ، كُلُّ مِنْهَا وَسِيلَةٌ لِلْامْتَحَانِ فِي طَرِيقِ عَبَادِ اللهِ، وَالسَّائِرِينَ فِي الْمَيَادِينِ الَّتِي تَتَمَيَّزُ فِيهَا شَخْصِيَّةُ الْأَفْرَادِ وَتَقْوَاهُمْ وَإِيمَانُهُمْ وَطَهَارَتِهِمْ وَأَمَانُهُمْ وَحْرَيْتِهِمْ.. إِلَخ.

وَلَكِنْ لَا طَرِيقٌ لِلانتِصَارِ فِي هَذِهِ الْامْتَحَانَاتِ الصَّعِيبَةِ لِجَتِيَازِهَا إِلَّا الصَّبَرُ وَالْجَدُّ وَالسُّعْيُ الْمُسْتَمِرُ، وَالاعْتِمَادُ عَلَى لَطْفِ اللهِ سَبِّحَانَهُ.

وَمِنَ الطَّرِيفِ أَنْ نَرَأِي حَدِيثًا عنْ أَحَدِ الْمَعْصُومِينَ فِي أَصْوَلِ الْكَافِي فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ (حَسَبَ النَّسَاسُ أَنْ يُتَدْرِكُوا أَنْ يَقُولُوا أَمَدَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ) يَقُولُ فِيهِ: "يُفْتَنُونَ كَمَا يُفْتَنُ الْذَّهَبُ، ثُمَّ قَالَ: يَخْلُصُونَ كَمَا يَخْلُصُ الْذَّهَبُ" [6].

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ، فَإِنَّ طَالِبِي الْعَافِيَّةِ الَّذِينَ يَظْنَنُونَ أَنَّ إِظْهَارَ الإِيمَانِ كَافٍ بِهَذَا الْمَقْدَارِ لِيَكُونُوا فِي صَفَوْفِ الْمُؤْمِنِينَ وَفِي أَعْلَى عَلَيَّينَ فِي الْجَنَّةِ مَعَ الذَّبِيْنَ وَالْمَدِيْنَ يَقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، فَهُمْ فِي خَطَأٍ كَبِيرٍ.

وَعَلَى حَدٍّ تَعبِيرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (ع) فِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ: "وَالَّذِي بَعْثَهُ بِالْحَقِّ لِتَبْلُبلَنَّ" بِلَبْلَةِ وَلِتَغْرِيلَنَّ غَرْبَلَةَ، وَلِتَسَاطُنَّ سُوطَ الْقَدْرِ حَتَّى يَعُودَ أَسْفَلَكُمْ وَأَعْلَاقَكُمْ أَسْفَلَكُمْ" [7].

صَبَرَ وَتَحْمَلَ الْإِمامُ عَلَيْهِ (ع):

بَعْدَ أَحَادِثِ التَّحْكِيمِ فِي "دُوْمَةِ الْجَنَّدِ" أَصْبَحَ الْكَثِيرُ مِنْ أَصْحَابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (ع) بِالْأَمْسِ أَعْدَاءَهُ الْيَوْمِ، وَهُمُ الْخَوَارِجُ الَّذِينَ خَرَجُوا عَنْ طَاعَتِهِ وَرَفَعُوا شَعَارَ "الْحُكْمُ لِلَّهِ يَا عَلِيٌّ" وَذَلِكَ بَعْدَ وَاقْعَدِ التَّحْكِيمِ. وَلَقَدْ كَانَ الْإِمامُ يَعْنِي مِنْهُمْ الْأَمْرَيْنِ خَصْوصَاً أَنَّهُمْ كَانُوا يَعِيشُونَ فِي الْكُوفَةِ وَبَيْنَ أَتْبَاعِهِ.

وَيَرَوْيُ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ (ع) كَانَ جَالِسًا فِي أَصْحَابِهِ إِذْ مَرَّتْ بِهِمْ اِمْرَأَةٌ جَمِيلَةٌ فَرَمَقَهَا الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقَالَ (ع):

"إِنَّ أَبْصَارَ هَذِهِ الْفَحْولِ طَوَامِحٌ، وَإِنَّ ذَلِكَ سَبِبُ هَبَّاتِهِمْ، إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى اِمْرَأَةٍ تَعْجِبُهُ فَلَمْ يُلَامْ أَهْلَهُ، فَإِنَّمَا هِيَ اِمْرَأَةٌ كَمَا مَرَأَهُ."

فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْخَوَارِجِ: قَاتَلَهُ اللهُ كَافِرًا مَا أَفْقَهَهُ.

فَوَثَبَ الْقَوْمُ لِيُقْتَلُوهُ.

فَقَالَ: رُوَيْدَا، إِنَّمَا هُوَ سَبَبٌ بِسَبَبِهِ، أَوْ عَفْوٌ عَنْ ذَرْبِهِ! [8].

وَهَذِهِ الْحَادِثَةُ تَبَيَّنَ لَنَا طَبِيعَةَ الْحَيَاةِ السِّيَاسِيَّةِ الَّتِي أَشَاعَهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (ع) فِي دُولَتِهِ الْفَتِيَّةِ بِالرَّغْمِ مِنْ كُلِّ الْمَعْوَبَاتِ وَالْعَرَاقِيلِ الَّتِي أَوْجَدَهَا مَعَارِضُهُ فِي طَرِيقِ هَذِهِ الدُّولَةِ. فَهَذِهِ الْحَادِثَةُ تَبَيَّنَ:

1- سِيَطَرَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (ع) عَلَى الْبَلَادِ.

2- الجو" الديمقراطي الذي أشاعته حكومة الإمام (ع).

3- سعة صدر الإمام (ع) وغفوه حتى عن أعدائه.

4- إضافة إلى مسألة أخلاقية تبيّنها الحادثة وهي أسلوب القضاء على فوران الغريزة الجنسية بالالتجاء إلى الطريق الحال في إشباعها.

الهوا مش:

[1]- نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم 93. [2]- نهج البلاغة، الخطبة 88. [3]- م. ن، الخطبة 123. [4]- الدعوات، قطب الدين الروايني، ص169. [5]- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج8، ص248. [6]- الكافي، الشيخ الكليني، ج1، ص370. [7]- نهج البلاغة، الخطبة 16.

[8]- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج20، ص63.

المصدر: كتاب موعظٌ من نَهجِ الْبَلَاغَةِ / سلسلة الدروس الثقا فية 36